



المتصوفة بالمغرب الأوسط من خلال كتاب مناقب صلحاء الشلف للمازوني -
- الشيخ أبو البيان واضح أنموذجا

Sufis in the central Maghreb through the book “Manaqib Solaha chlef ” by Al-
Mazouni - Sheikh Abu al-Bayan Wadah as a model –

محمد سماحي (*)

جامعة سيدي بلعباس ، الجزائر

sma1327@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2023/05/24 تاريخ القبول: 2024/08/27 تاريخ النشر: 2024/12/29

الملخص:

عرف الغرب الإسلامي في العصور الوسطى ظاهرة التصوف، التي أثارت جدلا واسعا في تاريخ الدول واختلاف بين المؤرخين مما يدفعنا للبحث عن تطور هذه الحركة في الغرب الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة وحاولنا تسليط الضوء على متصوفة القرن السابع هجري وبالضبط في منطقة الشلف من خلال كتاب مناقب صلحاء الشلف لأبي عمران موسى بن عيسى المازوني.

الكلمات الدالة:

الغرب الإسلامي، التصوف، المغرب الأوسط، الشلف، المازوني

Abstract:

The Islamic West in the Middle Ages defined the phenomenon of Sufism, which aroused great controversy in the history of countries and differed among the historians, thus stimulating the research of the evolution of this movement on the Islamic West in general and the Middle East in particular, and tried to shed light on Sufism in the seventh century Hijri, Munaqib Salha Chlef to Abu Amran Musa bin Issa Almazouni.

Key Words:

Islamic West, Sufism, Central Maghreb, Chlef, Mazonian

(*) المؤلف المرسل: محمد سماحي : sma1327@gmail.com



مقدمة :

تعتبر وحدة المجال الديني والفكري والثقافي للغرب الإسلامي مجال اختلاف بين الباحثين حول قضايا دينية وفكرية وثقافية شتى من أبرزها ظاهرة التصوف، وعرفت هذه الحركة الصوفية تطورا بالغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، باعتبارها مادة تاريخية هامة تساعد الباحث في التاريخ على تحصيل المعلومات الكثيرة التي تسلط الضوء على علاقة المتصوفة برجال الحكم والسياسة، والدور الذي لعبوه في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لأن ظاهرة التصوف بالمغرب الأوسط لم تحظ بأعمال تؤرخ لهذه الرقعة الجغرافية، فكل ما ورد بشأنها جاء ضعيفا، حيث تم تهميش النماذج الصوفية بمدن المغرب الأوسط التابعة للحكم الحفصي في الدراسات الخاصة بالدولة الحفصية، والأمر نفسه بالنسبة لرجال التصوف في فترات الغزو المريني، ضمن الدراسات المرينية، باستثناء النموذج الزياني بالمغرب الأوسط، والذي نحن بصدد دراسته في بحثنا هذا من خلال المتصوفة بالمغرب الأوسط من خلال كتاب " مناقب صلحاء الشلف لأبي عمران المازوني" تحقيق "الدكتور عبد القادر بوباية"، واشتمل الكتاب على عدة نماذج من المتصوفة، واختارنا الشيخ أبي البيان واضح المكناسي أنموذجا لمتصوفة العهد الزياني. فمن هو أبو البيان واضح؟ وما هي جهوده الإصلاحية؟ وكيف كانت علاقته بالمجتمع ورجال الحكم؟

1- ترجمة أبي عمران المازوني:

كنيته: أبو عمران، كما اتفق المترجمون على ذلك.

اسمه: موسى، وعيسى اسم والده¹.

نسبته: ينتهي إلى قبيلة مغيلة، قال عبد الرحمن بن خلدون: "مغيلة، وهم إخوة مطماطة وملاية، من ولد فاتن بن تمصيت (ممصيت) بن حريس (ضريسة) إحدى بطون البربر البتر، وأخواتهم ملزوزة معدودون منهم، وكذلك دونة وكشانة، ولهم افتراق في الوطن، وكان منهم جمهوران: أحدهما بالمغرب الأوسط عند مصب شلف في البحر من ضواحي مازونة..."².

المازوني: نسبة إلى مازونة، وهي مدينة في جبال الظهرة بين وادي الشلف و البحر المتوسط³ وهي تابعة حاليا في التقسيم الإداري لولاية غليزان.

قال ابنه أبو زكرياء يحيى بن موسى المازوني⁴: "وقد كان اتفق لمولاي الوالد رحمه الله في مدة قضائه ما اتفق لي من الالتجاء إلى كتب الأسئلة للأئمة المعاصرين له حتى اجتمع له من



أجوبتهم جملة وافرة كان رحمه الله عزم على ترتيبها على أبواب الفقه... فضممت ما كنت جمعت وما جمع مولاي الوالد رحمه الله...⁵.

قال التنبكتي: "هو موسى بن عيسى بن يحيى المغيلي قاضي مازونة، وصفه بعضهم بالفقيه الأجل المدرس المحقق، القاضي الأكمل، وهو والد صاحب النوازل"⁶.

تاريخ ميلاده: لا يعرف تاريخ ميلاد موسى بن عيسى المازوني على وجه التحديد، ولكن أحد الباحثين قال أنه ولد بـمازونة سنة 770هـ/1368م.⁷

عصره: قال موسى المازوني في مناقب المشيخة الشلفية: "وقد عاينت بأحوازنا شخصين قد اتصفا بهذا الوصف الذميم إلا أنهما قد أخذ نجمهما في الأفول وبدرهما في الكسوف في أواخر عشرة الثمانين من القرن الثامن"⁸ وقال في خاتمة كتاب قلائد التسجيلات: "انتهى هذا المجموع والحمد لله، وكنت ابتدأت في تبليغه في أواسط شوال من عام تسعين وسبعمئة..." ومن خلال هذا التاريخ نستنتج أن المؤلف قد عاصر نهاية القرن الثامن الهجري.

شيوخه: لم تذكر المصادر التي ترجمت لموسى بن عيسى المازوني شيوخه الذين تتلمذ عليهم، فمن خلال كتابه مناقب صلحاء الشلف يمكننا التعرف عليهم وهم: أبو زكريا يحيى بن عمر - الشيخ عيسى بن يحيى المازوني -

أبو زكريا يحيى بن علي - سعيد بن محمد العقباني (ت 811هـ) - أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي الحفيد (ت 842هـ).⁹

تلامذته: تجمع المصادر التي ترجمت للمازوني على أنه مارس مهنة التعليم، ومنه قول التنبكتي: "موسى... المغيلي المازوني قاضي مازونة وصفه بعضهم بالفقيه الأجل المدرس..."¹⁰، وتتفق المصادر على واحد منهم وهو ابنه يحيى مؤلف كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة.¹¹

مؤلفاته: الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق¹² - قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود - فريدة الاقتباس في كيفية النظر في الأحباس - حلية المسافر وأدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه -

تحلية الذهب في علم القضاء والأدب - فضل الفقر والفقراء - ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار -

مناقب صلحاء الشلف¹³.

وفاته: لم تذكر المصادر التي ترجمت لموسى بن عيسى المازوني تاريخ وفاته بالتحديد، لكن بعض الباحثين اجتهدوا في ذلك وقالوا أنه توفي سنة 833هـ/1430م.¹⁴



2- دوافع تأليف كتاب مناقب صلحاء الشلف:

كان الهدف الأساسي في تأليف هذا الكتاب كما أشار إليه المازوني هو ذكر مناقب الصالحين وما وصلوا إليه من مقامات عظيمة، وذكر فضائل الشيخ أبي البيان سيدي واضح ومناقبه وكراماته وغيره من صلحاء شلف المشهورين بالبركات وإجابات الدعوات¹⁵.

3- ترجمة الشيخ أبي البيان واضح المكناسي:

هو الشيخ أبو البيان واضح بن عاصم المكناسي دفين خنق ارهيو، قال ابن مرزوق التلمساني متحدثا عن جده للأُم إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام بن عيشون المطمطي التنسي المتوفي في حدود الثمانين وستمئة:" ومن أصحابه وعده في مشايخه الشيخ الصالح واضح الكبير القدر الذي كان بنواحي شلف وقبره ووطنه وخلفه معروف بتلك البلاد إلى اليوم نفع الله تعالى به"¹⁶.

4- مناقب الشيخ أبي البيان واضح بن عاصم المكناسي:

كان الشيخ سيدي أبو البيان واضح فيما حدث عنه الثقات شيخا فاضلا قاهرا لأحواله، مجتهدا في العبادة ، دائم التوجه إلى الله، قامعا لشهواته. خرج في مبدأ نهايته عن أكل هذه المؤلفات لا سيما ما جرى عليه ملك أحد، فكان يفتات ببقول الفحوص ومباحات الأرض. لم يكن رحمه الله عالما وإنما كان أميا كشيبيان الراعي¹⁷ عاملا صَوَّاما قَوَّاما حتى نضب لحمه ورق عظمه، وضعفت قواه من كثرة الوصال. وكان بما حدث عنه حادثة عن عاصره من أسلافهم أن حاله انتهت مرة إلى أنه كان لا يفطر إلا على رأس أربعين يوما بشيء من الخبز¹⁸ وحب الجودر¹⁹، ونبه على ذلك حفيده الشيخ المبارك²⁰ أبو محمد عبد الله بن يوسف في قصيدته التي جمع فيها ما صح لديه من كراماته. ثم انتهى حاله في آخر عمره إلى أنه كان من الروحانيين لا يدري من أين يأكل، وانتهى الشيخ رضي الله عنه في الاجتهاد في العبادة ومواصلة الأوراد والصيام والقيام إلى أن عجز عن التصرف مستقلا بنفسه، وربما خرج أحيانا من مغارته وموضع تعبدته يتهادى بين رجلين. يا أخي لا جرم أن الصوم يوجب تصفية الفكر وصفاء القوى الشهوانية بسبب الجوع، وذلك مما يوجب حصول المعارف الربانية والأحوال السنية.

قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَمَا مَاتَ قَضَائِلُهُمْ

وَعَاشَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَمْوَاتٌ²¹

واعجبا لأحياء تموت لرؤيتهم القلوب، وأموات تحيا بذكرهم القلوب. كان عبد الله بن زيد يقسم بالله أن الله ما صفى أحدا إلا بالجوع، ولا مشى أحد على الماء إلا بالجوع، ولا طويت



له الأرض إلا بالجوع، ولا والاه مولاه إلا بالجوع. ذكر لي من أثق به عن الشيخ سيدي واضح أنه وقع إليه كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي فأولع بمطالعتة، وكان يتحامل على نفسه بالعمل بما فيه، واستدام ذلك إلى أن ارتقى لمرتبة الرجال، ودخل في أعداد الأبدال وظهرت عليه أنوار ذي الجلال، ومن علوم الغيب أسرار. وأخبرني من أثق به من حفدته عمن يوثق به أنه رضي الله عنه ريء يوما قابضا على كريمته²²، فتحول لشخص وقال له : يا بني هذه اللحية بدلت.

أ- غذاؤه : وقالوا : انه كان في ابتداء أمره، وبعد أن اشتهر أمره يأخذ نفسه بأنواع الرياضات وضروب من المجاهدات ، فاعتقد في²³ وقت أن لا يطعم من المألوفات، فصار في ميقات فطره يقات بشيء من الخبيز، فأتاه يوما رجل بلحم سمين فتعجب الشيخ من ذلك، فرفض ذلك وأخبر أن العام كثير الخصب و البهائم تأكل كذلك الخبيز، فقال سبحانه الله، وكرر ذلك، فقال الرجل خرجنا من غيره لتخف أبداننا، فإذا بنا وقعنا فيما يسمننا، فاعتقد الرجل وانتقل إلى أكل الحلزون بدل اللحم.

ب- بداية أمره: ذكر عن حفدته أن الشيخ كان يعمل خماسا عند الشيخ أبي يكنى، وهو من المشاهير بمنطقة الشلف، ففي أحد الأيام جاءته يكنى بغذائه في غير وقته المعتاد، فرأته قائما يصلي والزوج تحرث بنفسها من غير قائد يقودها، فخافت وأعلمت أباهما أبي يكنى بذلك، فأتاه في اليوم الموالي متخفيا حتى يتأكد مما قالت ابنته، فوجد الأمر حقيقة فوقع في قلبه أنه ولي من أولياء الله فانصرف. ولما صارحه أبو يكنى بما رآه وأنه صاحب مقام كريم فيكي الشيخ سيدي واضح، فقال: الآن حين برح الخفاء، وانكشف أمري أنصرف عنك، فقال أبو يكنى: هذا الخمس لك حلال²⁴. وانتقل الشيخ من ذلك المكان فاستقر به الحال في منطقة تسمى تاعشوش، بأزرو قبلة جبل وافرشان بقبيلة مكناسة، صار يتعبد بذلك المكان حتى اشتهر أمره.

5- كراماته:

يذكر أن سيدي واضح كان مستترا في أحواله، يخفي أمره كثيرا عن عماله وعن إمام البلدة سيدي عزوز²⁵، كان رجال الغيب يأتونه في الليل ويذهب معهم لزيارة الإخوان في الله، ثم يعود لمغارته في الليل، وفي إحدى الليالي تفقده إمامه سيدي عزوز فلم يجده، ولم تفقد المسجد وجد الباب مغلقا، فبعد فترة وجيزة إذا به يسمع سيدي واضح يناديه: قم يا عزوز، قم للأذان فقد قرب انصداع الفجر ففعل²⁶. ذكر المازوني على لسان حفدته الذين عاصروهم



أنه قال لإمامه سيدي عزوز: سر بنا لكهوف بجبل وافرشان، فإن الفقراء يردون علينا وليس لدينا ما نطعمهم، وجيراننا لا يهون عليهم مساعدة المحتاجين، فاصعد بنا للمغارات نقيم بها أياما، فرد عليه سيدي عزوز: كيف يمكننا البقاء هناك في هذا الزمان لا ماء ولا مرعى، ونحن محتاجون للماء للوضوء والشرب، فقال له سيدي واضح: ما أضعف يقينك، فمضى معه وحمل كل منهما سجاده وإبريقه وعكازه وزادا يسيرا، وكان الوقت صيفا. فلما وصلوا إلى العباد وهو موضع تعبد الشيخ، فلما حل الليل وصلى كل منهم ما شاء الله، قام سيدي عزوز وإذا السماء تمطر، فقال سيدي واضح له: ألا تسمع يا عزوز لهذا الخير؟ توضأ واشرب، فسر سيدي عزوز، وازداد يقينا في قلبه أن سيدي واضح من أكابر الرجال²⁷. وبسبب ذلك ذهب الناس إليه للعباد مستقر الشيخ للتبرك به، والتماس الدعاء منه، وقالوا: تعينت علينا ضيافته وإن كان الوقت مذموما. ومن المناقب التي ذكرها المازوني للشيخ أن أخوين ولدت لهما شاة من غنمهما توأمين، فهم أحدهما بذبح إحدى الشاتين فمنعه أخوه عن ذلك، وقال: نبقيا باسم سيدي واضح، فصار ذلك الخروف رأس غنمهما، فقال أحدهما للآخر: هذه ليلة الكباش نحمله للشيخ، فمنعه الكبر على القيام بذلك، وقال له: دعه لوقت آخر. ولما ذهب للقاء الشيخ كما كان يفعل الناس، يزورونه من أجل الدعاء والبركة، فلما وصلوا مع الناس وسلموا عليه، رحب بهم وسر بقدمهم عليه فالتفت للأخوين وقال: يا فلان كبرت فينا الكباش وبخلت به علينا، فاندھش وتلعثم لسانه، وأخذ يعتذر إليه، وقال له: يا سيدي نأتيك به، فرد عليه الشيخ: لا أقبله، ولو وفيت بوعدك لكانت غنمكما إلا غنم شعيب عليه السلام، يعني النمو والبركة²⁸. لقد كان لسيدي واضح عدة كهوف بجبل وافرشان يخلو فيها للعبادة، إلى أن جاءت رسائل السعادة وبشرته بوصوله لمقام السادة، فزادت عند ذلك همته واشتدت خدمته، فصغرت عنده عظام الأمور، واعترف بولايته الخاصة والعامة، فكان إذا قام للصلاة تحفه الأسود والطير ترفرف بأجنحتها ابتهاجا بقربه، وتباشر الحجل منها لفلاء ثوبه. ذكر المازوني أنه أخبره غير واحد من شيوخ الحوز عن آبائهم وباستفاضة ذلك عن الشيخ، واشتهر الشيخ بين الناس في أواسط القرن السابع، ونبه حفيده أبو محمد في قصيدته أن اشتهاره في أوائل الستين من القرن السابع، وقصد من بلدان عديدة للزيارة وطلب الدعاء وإشفاء ذوي العاهات لمن أمه للاستشفاء، وكان متفرسا ومكاشفا بخبر الزوار الوافدين عليه وما جرى لهم في طريقهم²⁹.

أ- زيارة يغمراسن لسيدي واضح:



ذاعت وانتشرت أنباء سيدي واضح بين الناس، وتناقلت الألسنة مناقبه وكراماته ومكاشفاته، فجاءه زعيم قبيلة بني عبد الواد³⁰ السلطان يغمراسن بن زيان³¹ بجيوشه، فنزل بخنق ارهيو³² وتوجه لزيارته والتبرك برؤيته، فجاءه خاضعا في آخر الليل، فلما أسفر الصبح إذا بيغمراسن واقف³³ مع حاشيته، واستأذن الدخول على الشيخ فلم يأذن له وكان يوما حارا، فصار يلح حتى يراه، فقال له مرافقوه: يا يغمراسن، المقصود حصل فانصرف، لعل الله ييسر لنا رؤيته في وقت آخر، ولما رأى سيدي واضح أنهم يئسوا من لقائه، خرج إليهم من مغارته والنور يعلوه، فهابوا القرب منه، فقال: يا يغمراسن أما تعلم وقوف الضعفاء والمساكين وذوي الحاجات ببابك، وما يجدونه في قلوبهم من الانكسار ومدافعة حراس الأبواب بطول احتجاجك عنهم، وإنما فعلت ذلك لتتيقظ من سنة غفلتك، وتذكر أحوال القاصدين إليك والواجب على العبد عند مجالسة الظلمة قلة الرضا عنهم، والنظر إلى وجوه الظلمة يقسي القلب، ومن أحب لقاء الظالم فهو ظالم، فأخذ يغمراسن يعتذر له، وقد ظهر عليه الخجل، وسيدي واضح منقبض عنه، فاندشش مما رأى ومن معه وما شاهده من أحواله وما ألقى الله في قلوبهم من هيبتة³⁴. بعد الموعظة البليغة لسيدي واضح، اختلى بيغمراسن فكاشفه عن أشياء استتر بها في قصره، فقال له: لما لا تنتهي من الأعمال والأفعال القبيحة حتى جمعت بين أختين نصرانيتين، فهل الخير في لذة ساعة تلقي بصاحبها إلى عذاب الله واسترسل في كلامه القوي، فخر يغمراسن عند قدميه بين يديه أمام الحاضرين، فأخذ يطلب منه كتم معاصيه، وقال معلنا: أشهدك أنني قد خرجت عنهما، ولا أعود لهذه المعصية التي ظننت أنه لم يطلع علي فيها إلا أنت، فلما رآه الشيخ ندم وتاب، قال له: لا عليك خذ ما أباح لك الشرع، وانتهي مما يصدك عن الاستمتاع بها³⁵.

وبعدما عاتبه أشار إليهم الشيخ أن يأثمهم بالطعام، فقرب إليهم طعاما كثيرا بلحم سمين، فقال الشيخ هكذا يا يحيي يأتي إلى الناس لزيارتي من مسافة بعيدة وتطعمهم خبز الشعير والتين؟ فقال له يغمراسن: يا عابد إن لم يطب لك أن نأكله فعلنا، قال: لا بل كلوا على بركة الله. فلما فرغوا من الأكل التفت الشيخ للخليفة وقال له: يا أبا يحيي من خلفك من بعدك؟ فقال: هذا، وأشار إلى ابنه عامر، ووصفه أنه فقيه كيس فطن، فقال له الشيخ³⁶: لا تحتاج إلا لسلطان معه بعض الغفلة وأما الحاذق الكيس فتكون الرعية معه في حيرة لاسيما وهو فقيه مجبول على حب الدنيا. فقال له: يا سيدي ومن ترى أنه أحق بذلك؟ قال: هذا، وأشار إلى ابنه عثمان، فسر يغمراسن بذلك لبقاء الملك في عقبه، فلما هموا بالذهاب وتأهبوا



لوداعه، قال لأحد أبنائه ألم تك أمك أوصتك أن تأتيا بحجاب؟ قال نعم يا سيدي نسيت، وأخذ يده اليمنى فقبلها، فقال سيدي واضح: يا عزوز ناوله إياه من مكان أشار إليه فناوله. وأوصى يغمراسن بتفقد أحوال رعيته وبالأخص المساكين والرفق بهم، وقال له: يا أبا يحيى، كل راع مسؤول عن رعيته³⁷. فانصرفوا من عنده فرحين وازدادوا بصيرة غير مشككين أنه ولي أكابر أولياء الله تعالى. وهذه الرواية تداولها حفدته وجميع شيوخ ذلك الوطن واشتهرت بحيث لا يحتاج في تأكيدها نقل الخلف عن السلف³⁸. شاء الله أن تتحقق مكاشفة الشيخ ليغمراسن بتولي الخلافة من بعده ابنه عثمان³⁹.

ب- أخبار سيدي واضح مع أمير توجين:

نزل عبد القوي بعدوة وادي ارهيو تجاه زاوية الشيخ، ففزع الناس وفروا إلى الشيخ بخيامهم ومواشيهم، والتفوا حول زاويته مستأجرين به، إذ كان عبد القوي طالب نكاية في مغراوة الذين قتلوا ابنه زيان في الحرب التي وقعت بينه وبين يغمراسن بمقربة من جبل وانشريس، خائفون على أنفسهم وحريمهم ونهب أموالهم، فظهر الشيخ في سواد الليل من مغارته قرب السحور⁴⁰، فنظر إلى السماء وتضرع إلى ربه في دفع شره عنهم، وأنشد لسان حاله:

أُنْظِرْ لِي تَكْرَمًا وَتَفَضُّلاً
هَذَا عُيْبُكَ وَأَقِفْ بِالْبَابِ

أخبر حفدة الشيخ وغيرهم أن محمد بن عبد القوي أصابه وجع، وانتفخ بطنه حتى كان يصب من فمه ودبره، فنصحه بعض خاصته أن يصرف عن نفسه ذلك الرأي السيء وقيل له: لعل الذي أصابك من تغيير قلب هذا الصالح عليك غير منه على جيرانه، وبكاء الصغار والكبار ولجؤهم إليه، وقالت له بعض نسائه: تريد إدخال يدك لبعض الغيران حتى تلدغك بعض الأفاعي، وإذا بفارسين يفزعان للزاوية، فقيل لهما: ما شأنكما؟ فقالا: الشيخ محمد أصابه وجع يوشك على الموت، وقصدنا العابد بأمره يرقى لنا ماء ليستشفي بشره، فرقاه وانصرفا به مسرعين، فشربه فشفي، وذهب عنه ما كان يشكي من وجع، فذهب إليه من الغد خاضعا ذليلا، واستبشر الناس وأمنوا به، وأنشد لسان الحال:

يَا جَيْرَةَ الْحَيِّ الْمُنِيعِ جَنَابُهُ
لَكُم بِقَلْبِي ذِمَّةٌ لَنْ تُخْفَرُ⁴¹

ومن مكاشفات سيدي واضح، أنه كلف الحاج أبي مهدي سيدي عيسى أن تصنع له امرأته بنت المرباط أبي حنان برنسا، بشرط أن ألا تتناول في غسل الصوف والغزل والنسج إلا وهي على وضوء، فلما انتهت منه أتاه به. بينما هو في بعض الشعاب ودخل عليه وقت صلاة الظهر أو العصر، فنزل ليصلي، فترك برنوسه وسكينه عند مرافقه، وإذا بلصين عمد أحدهما



إلى سرقة البرنوس وهم بالهروب فقيده الله، فلم يستطع أن يتحرك، وقام مرافق الشيخ بإخراج السكين الذي أعطاه الشيخ لتهديده فقال له: يا عدو الله على برنس سيدي واضح تتعدى فأخذه منه، فلما وصل الشيخ قال نفعنا الله به وقال: يا عيسى أعطيتك السكين لإزالة الأثواك من رجلك، فإذا بك تخيف بها الناس، وأعاد الكلام عليه، فميت الحاج من مكاشفته. وكان قبل أيام اشتكى رجل للشيخ من البرد و طلبه البرنس، فقال له الشيخ: أمهل يفتح الله فيه، ثم نادى الشيخ الرجل فممنحه إياه، فلبسه فجاء على وفق مقاسه، فقال له: خذه فهو لك، فقال سيدي واضح للحاج الذي كلفه بصناعة البرنس: لعل شيء في نفسك، برنس صنعناه برسمه فأعطاه لغيره، فقال الحاج: ما الأمر إلا كما قلت، فقال الشيخ: يا عيسى اتق الله، هذا الرجل لخير مني، فطابت نفسه وأحسن الظن بالله، فرح الحاج بذلك وبأحواله معه في أمر اللص⁴². ومما أخبر به حفدة الشيخ أن الحاج الصالح أبا مهدي عيسى بن فكرون لما رجع من سفره واقترب من الوصول إلى أهله، وقع في نفسه أن يؤثر بزيارة سيدي واضح قبل أهله، فانحرف عن طريق أهله صوب زاوية الشيخ، فكوشف بذلك وكان الشيخ في جمع من الفقراء يأكلون حوله شهداً، فقال لهم: يا أبنائي عساكم تتفضلون بترك شيء من الشهيد، ففرحوا وقاموا بعزله داخل القصعة، فبينما هم كذلك إذ دخل الحاج عيسى عليهم، فنهض الشيخ سيدي واضح للسلام عليه وصاح: الله، صيحة شديدة، وكان لايقوى على القيام إلا اذا أمسك أحد بيده لضعفه من كثرة الصلاة والصوم، فقال له: كل نصيبك فإني تركته لك، وقال لمن معه: إنما أثرته بنصبي لأنه أثرتني بالرؤية عن أهله. فعظم حاله في نفس الحاج عيسى لما كاشفه به⁴³.

مما يحكى عن الشيخ سيدي واضح، قصته مع إمامه سيدي عزوز. فقال له في إحدى الليالي: سر بنا لمسجد كركار، قال: فذهبت معه، فلما اقتربنا لاحتظنا شعاع ضوء القنديل، فسبقني قليلاً للمسجد فسمعتة يقول عند الدخول: السلام عليكم، فنظرت فلم أرى أحداً، وأخذ يتنقل في المسجد⁴⁴، وبعد مضي جزء من الليل، قال: يا فقيه لعلك جعت، فقلت نعم، وما نأكل هنا؟ فقال لي: يرزق الله، فوقف بباب المسجد ساعة ثم أتاني بطبق على يديه فيه خبز وعنقودا عنب أسود فقدمه لي، فقلت: بسم الله نأكل أنا وأنت، فقال لي: هذا الشيء متاعك. قال: فقلت في نفسي: لو أن الله سخر الشيخ يقول لي كل عنقودا وخذ لزوجتك عائشة عنقودا، فالتفت وقال لي: قلت كذا وكذا؟ قلت: نعم، فقال مستبشر الوجه: افعل ما تريد، فأكلت شيئاً يسيراً من الخبز والعنب فشبع، فقام الشيخ برفع العنقود الذي تركته لزوجتي



ووضعه بالأرض وحمل الطبق وما بقي فيه ووقف بباب المسجد، ثم رجع ولا شيء معه. وفي الصباح حملت العنقود لعائشة فقالت لي: من أين لك بهذا؟ قلت لها: أرسل إليك به سيدي واضح فكلي واسكتي ثم بعد أيام حدث للشيخ سيدي واضح والإمام سيدي عزوز نفس الأمر لكن في هذه المرة كان الطبق به الخبز والرمان، لكن الإمام عمد إلى رمانة ووضعه في كسائه ليأخذها لابنه المريض بدون علم الشيخ⁴⁵، فلما أصبح قدم على زوجته وسألها عن حال ولده، وقال لها: جئت له بدواء عظيم أخذته من الشيخ، ولما عمد إلى كسائه لإخراج حبة الرمان لم يجدها، فتعجب لذلك وذهب للشيخ ليتقصى ما حدث له، قال له الشيخ: اذهب، ترفع الرمانة دون إذن، قلت: جئت لأخبرك بقصة الرمانة، قال: عادت لمكانها الذي جاءت منه.

ومن كرامات ومكاشفات الشيخ سيدي واضح أنه ذات يوم وقف بباب متعبدة، فقال لرجل: تعالى معي إلى ها هنا، فمشى معه الرجل لكدية بالقرب من مصلى العيد، فقال له: أمعك سكين؟ فأعطاه سكيناً فقطع به نباتاً ثم ردها له، ثم عاد، فلما أخرج سكينه رآها قد تحولت ذهباً فانددهش، فتخيل أن السبب في ذلك هو النبات المقطوع بالأمس، فأخذ حديدة من بيته ومضى مسرعاً للكدية، فصار يقطع من نباتها حتى أتعبه ذلك فرجع، ومر على الشيخ فلما رآه تبسم وكاشفه بالحدث، ثم قال: تدري أين كنا بالأمس؟ قال: ما أظن إلا أنا برأس هذه الكدية، قال: يا ولدي إنما كنا بجبل قاف، وهناك نباتات تقلب الأعيان، فهت الرجل، وقال في نفسه: هذه والله كرامات، سكتني انقلبت ذهباً، الأرض طويت، اطلأه على سري، فتعجب وأخذ يخبر بذلك كل من لقيه، وانتشر الحديث عنه أنه كانت تأتيه رجال الغيب في سواد الليل لمغارته، فيذهب معهم لأقصى البلدان، ويجمع الرجال الأخيار والصلحاء⁴⁶.

6- مكانة الشيخ سيدي واضح:

أخبر الشيخ أبو زكرياء يحيى بن عمر قال: سمعت من سيدي عبد الله بن يوسف وهو ثقة يقول⁴⁷: أنه رأى لأبي حامد الغزالي تأليفاً، ذكر فيه أسماء أولياء الله تعالى ممن تقدم عنه أو يأتي بعده إلى يوم القيامة، فذكر فيه ما نصه: ومنهم أبو البيان واضح بجبل وافرشان. وذكر الحاج يعقوب بن عبد الله بن يوسف المذكور سابقاً وغيره من حفدة الشيخ وغيرهم أن الشيخ أبا مدين مر من هناك فقال: ما اسم هذا الجبل؟ فقليل له: وافرشان، فقال: لا، بل وافر الشأن، أي وتد يكون في هذا المكان. واتفق حفدة الشيخ وفقهاؤها وخاصته وعامته بما استفاض به الخبر عندهم، أنه تقطب قبل موته بنصف يوم، وقال الحاج يعقوب: بل ربع



يوم⁴⁸ . والقُطبية للعارف هي المنتهى، وهي لقب عندهم لمن يفوض الله له التفويض والتدبير في الوجود في العالم السفلي⁴⁹ .

7- وفاته:

ذكر أبو عمران أنه بحث عن تاريخ مولد ووفاة الشيخ سيدي واضح، فلم يجده عند أحد، وأن حفيده أبا محمد ذكر في قصيدته أنه توفي في أواخر القرن السابع⁵⁰ .
الخاتمة:

نستخلص من هاته الدراسة أن المتصوفة بالمغرب الأوسط، كان لهم تأثير واضح على جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فمن خلال سيرة الشيخ أبي البيان واضح نلاحظ ما جرى بينه وبين السلطان يغمراسن بن زيان، وأمير بني توجين وما لقيه الشيخ من التعظيم والاحترام والتقدير، والأخذ بنصائحه ومواعظه، أما اجتماعيا فكان الناس يأتونه من كل حدب وصوب فرادى وجماعات يلتمسون منه الدعاء وطلب الشفاء، فالمتصوفة كانوا يحظون بمكانة عظيمة بين العامة والخاصة نظير ما يلقونه من مكاشفاتهم وكراماتهم ودعائهم، لكن تبقى هاته الروايات الشفوية محل نظر بين التصديق والتكذيب، فهناك مبالغة في سرد جوانب من حياتهم، فتارة يذكر أن الشيخ أمي ثم يقولون كان مولعا بمطالعة كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وتارة يذكر أنه كان يمتنع عن أكل اللحم ويكتفي بأكل الخبز ويتحجج أن البهائم كذلك تأكل الخبز، ضف إلى ذلك ما يسمى بالمكاشفة وهو اطلاعه على الأمور الغيبية الخاصة بالله عزوجل، وتحول السكين إلى ذهب بمجرد قطع النباتات، وتفويض الله عزوجل لهم أمور التدبير في العالم السفلي، وهذا أمر حتى الأنبياء لم يمنحوه فما بالك بأشخاص أميين يحلون ويرتحلون إلى بلدان عديدة في دقائق معدودات، وهذا الاستنتاج هو اجتهاد شخصي يعتريه النقص ونسعى في دراستنا إلى ذكر الحقائق وفق ما يتقبله عقل الانسان الباحث عن الحقيقة.



الهوامش :

- ¹ أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1421هـ-2000م، ج 2، ص 243.
- ² عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1421هـ-2000م، ج 6، ص 155.
- ³ أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ-2002م، ص 271-272.
- ⁴ أبو زكريا يحيى بن موسى بن عيسى بن يحيى المغيلي المازوني مؤلف كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة، المتوفى بتلمسان 883هـ/1474م.
- ⁵ أبو زكريا يحيى بن موسى المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، رسالة دكتوراه، دراسة وتحقيق قندوز ماحي، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 1431-1432هـ/2010-2011م، ص 133.
- ⁶ التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 243.
- ⁷ أبو عمران موسى بن عيسى المازوني، مناقب صلحاء الشلف، ت: د. عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2019م، ص 14.
- ⁸ المازوني، المصدر السابق، ص 42.
- ⁹ المصدر نفسه، ص 16-17.
- ¹⁰ التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 243.
- ¹¹ المازوني، مناقب صلحاء الشلف، ص 17.
- ¹² التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 243.
- ¹³ المازوني، مناقب صلحاء الشلف، ص 20-25.
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص 25.
- ¹⁵ نفسه، ص 27.
- ¹⁶ أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية، ت: سلوى الزهراوي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1429هـ-2008م، ص 273.
- ¹⁷ شيبان الراعي: كان من رؤوس الزهاد وأكابر العارفين، مات بمصر ودفن بالقرافة بقرب الشافعي. زين الدين المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، ت: محمد أديب جادر، دار صادر، بيروت، ج 1، ص 325.
- ¹⁸ الخيزر أو الخبازي جنس نبات من الفصيلة الخبازية منه نوع يطهى ورقه فيؤكل. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، الطبعة الرابعة، 1425هـ-2004م، ص 215.



- ¹⁹ الجودر : شجرة صغيرة مشوكة لها أغصان حمراء، ويكون ثمره على شكل ثمر السدر لونه أخضر ثم يحمر وطعمه مر، ومنه ما ثمره مستدير عدسي الشكل أخضر ثم يحمر إذا انتهى إسود ويحلو. ضياء الدين بن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م، ج 1، ص 244.
- ²⁰ المازوني، مناقب صلحاء الشلف، ص 102.
- ²¹ المصدر السابق، ص 103.
- ²² كريمته : كريمة الرجل ابنته وكريمته أنفك وكل جارحة شريفة كالأذن واليد واللحية. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص 785.
- ²³ المازوني، مناقب صلحاء الشلف، ص 104.
- ²⁴ المصدر نفسه، ص 106.
- ²⁵ نفسه، ص 108.
- ²⁶ نفسه، ص 110.
- ²⁷ نفسه، ص 112.
- ²⁸ نفسه، ص 115.
- ²⁹ نفسه، ص 131.
- ³⁰ عبد الواد : ينسبهم الأخوان ابن خلدون إلى زناثة، بينما ينسبهم التنسي إلى القاسم وهو من ولد عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم-، وهم أفخاذ شتى منهم بنو طاع الله وبنو مطهر وبنو وعزان وبنو معطي وبنو حجي. يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ت: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م، ج 1، ص 207.
- ³¹ يغمراسن بن زيان : أبويحي يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد بن زيدان بن يندوكسن بن طاع الله، تولى الحكم سنة 633هـ/1236م، وتوفي سنة 681هـ/1283م. ابن خلدون، بغية الرواد، ج 1، ص 225.
- ³² المازوني، مناقب صلحاء الشلف، ص 133.
- ³³ المصدر السابق، ص 134.
- ³⁴ نفسه، ص 136.
- ³⁵ نفسه، ص 138.
- ³⁶ نفسه، ص 140.
- ³⁷ نفسه، ص 141.
- ³⁸ نفسه، ص 142.
- ³⁹ نفسه، ص 144.
- ⁴⁰ نفسه، ص 145.
- ⁴¹ نفسه، ص 146.
- ⁴² نفسه، ص 149.



⁴³ نفسه، ص 153.

⁴⁴ نفسه، ص 157.

⁴⁵ نفسه، ص 158.

⁴⁶ نفسه، ص 159.

⁴⁷ نفسه، ص 165.

⁴⁸ نفسه، ص 166.

⁴⁹ نفسه، ص 167.

⁵⁰ نفسه، ص 172.